بشر بن المعتمـــر

بقلم حسن علوان
المدرس بمدرسة شبرا الثانوية

علينا قبل أن نذكر شيئاً عن بشر بن المعتمر، أن نلم إلماماً وجيزاً بطائفة المعتزلة، لأن بشراً إمام من أئمتها. فنمر مروراً سريعاً، على المبادىء العامة التى اشتركوا فيها، والمشاكل التي أثاروها وتعرضوا لحلها، ونعرف ماقامت عليه بيناتهم من السطوة العقلية، وقوة الجدل، وامتلاك ناصية البلاغة، وفهم أسرار الكلام، وتأثرهم بالفلسفة اليونانية. وتأثيرهم فى سياسة الدولة العباسية زمناً بعيداً، وجهادهم العنيف فى الدعوة إلى آرائهم. وتقرير مذاهبهم، وإطلاق العقل من قيوده إلى أبعد حدوده، وحرية الرأى، ومقارعتهم خصومهم من أهل الفرق الأخرى فى غير هوادة ولا لين.

أما المعتزلة عامة فقد تناولوا القول فى أصول خمسة: هى «التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فقالوا فى التوحيد: إن الله (عزوجل) لا كالأشياء، وإنه ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر، ولا جزء ولا جوهر، بل هو الخالق للجسم، والعرض والعنصر، والجزء والجوهر، وإن شيئاً من الحواس لايدركه فى الدنيا ولا فى الآخرة، وإنه لايحصره المكان، ولا تحويه الأقطار، بل هو الذى لم يزل ولازمان ولامكان ولا نهاية ولا حد، وإنه الخالق للأشياء. المبدع لها لا من شيء، وإنه القديم، وإن ماسواه محدث[1]، وأوضحوا معنى التوحيد فى جلاء، وشرحوا قوله تعالى: «ليس كمثله شيء» أقصى شرح وأعمقه. وأوّلوا كل الآيات الدالة على الجهة، وعلى الأعضاء، وعلى مشابهة المخلوقات[2]» مثل قوله تعالى: «الرحمنُ على العرش

(١) الجزء الثانى مروج الذهب صفحة ١٩٠ فى أثناء الكلام عن يزيد الناقص
(٢) ضحى الاسلام الجزء الثالث صفحة ٢٦

استوى . ، وقوله : ، يخافون ربهم من فوقهم ، وقوله : ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، تأويلا ينزه الخالق جل شأنه ، عن مشابهته المخلوقات فى شىء من العرَض أو الجوهر ، وقد أدّاهم ذلك إلى القول بأن صفات الله : من قدرة وإرادة وعلم وحياة وسمع وبصر وكلام ، هى وذاته شىء واحد ، أى أنها لاتوجب شيئاً آخر غير الذات الواحدة ، وإذا كان الله وصفاته وحدة لاتقبل التغيير ، فمحال أن يكون القرآن وهو الكلام الذى نقرؤه بألسنتنا ، ونسمعه بآذاننا ، كلامَ الله أى صفة من صفاته ، واتفقوا على أن سُوَرَه وآياته وحروفه قد خلقها الله ، وأوصلها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، عن طريق جبريل ، وهو ليس كالكلام الذى ينسب إلينا ، وينشأ من عملنا . واستيقظت لهذا الرأى فتنة شغلت العقول ، وأثارت الجدل ، واستهوت الخليفة المأمون ، فأراق لحمايتها والدفاع عنها الدماء ، وعذّب الأبرياء ، وشاعت فى عصره وعصر المعتصم والواثق بعده ، وسميت بفتنة خلق القرآن ، وصاحبها ، القاضى أحمد بن أبى دؤاد ، ممن نشأ فى العلم ، وتضلّع بعلم الكلام ، وصحب فيه هياج بن العلاء السلمي ، صاحب واصل بن عطاء ، أحد رؤساء المعتزلة ؛ وكان ابن أبى دواد رجلا فصيحاً . . . . وكان معظماً عند أمير المؤمنين المأمون ، فدسّ إليه القول بخلق القرآن وحسّنه عنده ، فصار يعتقده حقا مبيناً ، إلى أن أجمع رأيه فى سنة ثمانى عشرة ومائتين هـ ، على الدعاء إليه . وأشخص إليه العلماء والفقهاء ومشايخ الحديث ، فمن أجاب نجا ، ومن امتنع عن الجواب قتل أوعُذّب ، فقتل المأمون محمد بن نوح ، وعذب المعتصم أحمد بن حنبل ، وقتل الواثق أحمد بن نصر الخزاعى ونعيم بن حماد ، [1]

وقالوا فى العدل : ، إن الله لايحب الفساد ، ولا يخلق أفعال العباد ، بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه ، بالقدرة التى جعلها الله لهم ، وركبها فيهم [2] ، وقالوا : إن العبد قادر ، خالق لأفعاله ، خيرها وشرها ، مستحق على مايفعله ثواباً وعقاباً ، فى

(١) عن مفتاح السعادة الجزء الثانى صفحة ٣٩

(٢) الجزء الثانى من مروج الذهب صفحة ١٩٠

الدار الآخرة . والرب تعالى منزه أن يضاف إليه شر وظلم ، وفعل هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالما ، كما لو خلق العدل كان عادلا »(١)

وقالوا فى الوعد والوعيد : إن الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة، وأن من مات عن كبيرة استحق الخلود فى النار ، وأن المؤمن إذا مات طائعا تائبا استحق الثواب والنعيم . وقالوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : إنه من واجبات المؤمنين ، كل على حسب استطاعته : بالسيف أو اللسان أو المال ، وأن عليهم مجاهدة المسلم العاصى ، والكافر على السواء .

وقد أرادوا « بالمنزلة بين المنزلتين » من يرتكب الكبائر من الذنوب ، كمن يترك إقامة ركن من أركان الإسلام ، أو يقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، فقد أطلقوا عليه وعلى مثله اسم الفاسق ، ولم يطلقوا عليه اسم المؤمن أو الكافر

هذه المبادىء الخمسة هى الدستور العام للمعتزلة ، ولا يستحق اسم الاعتزال إلا من اعتنقها ، أما إذا زاد عليها من الفروع ، كان معتزليا منسوبا إلى طريقته ، كالواصلية ، والبشرية ، والنظامية ، وهم أتباع واصل وبشر والنظام ، لأنهم اعتنقوا المبادىء الخمسة ، وزادوا فى اعتناق الفروع التى قال بها إمام كل فرقة .

ولقد ثارت فى علم الكلام مسائل ، كالقضاء والقدر ، والجبر والكسب فى إرادة الخير والشر ، والإيمان والتوبة ، وشرائط الإمامة ، وهل المرجع فيها إلى النص والإجماع ؟ واحتكم المعتزلة فيها إلى العقل ، وبسطوا سلطانه على النصوص المنزلة فأولوها على حسب ما يهدى إليه العقل ، وتهيب مخالفوهم من الفرق الأخرى ، أن ينازلوهم فى ميدان الجدل ، لقوة حجتهم ، وعمق فكرتهم ، وشدة إفحامهم ، حتى تحاشوهم ، وأصبح فرسان حلبة المناظرة والجدل منهم دون سواهم ، ورأوا « أن العقل البشرى قد منح من السلطة والسعة ، ما يمكنه من إقامة البرهان ، حتى على ما يتعلق بالله . . . فلا زلل ولا خطأ عندهم متى صح البرهان ، فلنستعمل البراهين . فى أدق الأدور وأصعبها وأعقدها ،

(١) الجزء الأول صفحة ٥٥ من الملل والنحل للشهرستانى على هامش الجزء الأول من كتاب الفصل لابن حزم

فى استطاعة العقل الوصول الى الحق فيها [١] ، وقد لجوا فى الجدل إلى أبعد حدوده ، وأقاموا المناظرات ، واستضاءوا كما قدمنا بنور العقل ، وتزودوا بالمنطق ، والبيان ، ودرسوا الفلسفة اليونانية ، وأحاطوا علماً بآراء الفرق المخالفة لهم ، وبرعوا فى فهم أسرار الكلام ، والاحتجاج بمأثور القول على ما يعزز آراءهم ، ويقوى حجتهم ، ويمكنهم من القيام بالدعوة للإسلام ، والتغلب على المخالفين لهم .

أما قدرتهم على الجدل ، فهى ثابتة لهم بشهادة الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، وهو كما تعلم من ذوى الرأى ، والمنتصرين للعقل ؛ قال : « كنت رجلا أعطيت جدلا فى الكلام ، فمضى دهر فيه أتردد . وبه أخاصم ، وعنه أناضل ، وكان أكثر أصحاب الخصومات بالبصرة ، فدخلتها نيفاً وعشرين مرة . أقيم سنة وأقل وأكثر ، وكنت قد نازعت طبقات الخوارج من الأباضية وغيرهم وطبقات المعتزلة ، وسائر طبقات أهل الأهواء ، وكنت بحمد الله أغلبهم وأقهرهم ، ولم يكن فى طبقات أهل الأهواء أحد أجدل من المعتزلة » [٢]

وبالرغم من أن أبا حنيفة يحمد الله على أنه كان يتغلب على أهل الجدل ، ويقهر أصحاب الخصومات ، ويعترف بأن المعتزلة أجدل أهل الأهواء ، فإنه على ما يظهر ، كان يفحم أمامهم ، ويضيق صدره بقوة حجتهم ، فيرميهم بقسوة القلوب ، وغلظ الأفئدة ، لأنهم لا يسيرون على سنن المتقدمين من التسليم بظاهر النصوص أو إغفال العقل ، تحاشيا للخوض فيما يجرهم إليه الجدل من شبه ومشاكل ؛ فيقول عنهم : « إنى رأيت من تنحل بالكلام ، وتجادل فيه ، ليس سيماؤهم سيماء المتقدمين ، ولا مناهجهم مناهج الصالحين ، رأيتهم قاسية قلوبهم ، غليظة أفئدتهم ، لا يبالون مخالفة الكتاب والسنة [٣] »

وإذا كان الجدل لا بد أن يعتمد على حدة الذهن ، والتزود بالأسباب

(١) ج ٣ ضحى الاسلام صفحة ٣٩
(٢) ج ٢ مفتاح السعادة صفحة ٢٤
(٣) ج ٢ مفتاح السعادة صفحة ٢٩

والعلل ، والإمعان والتعمق فى دقائق المعانى ، والتفنن فى ضروب الخطاب ، وسرعة الاستشهاد ، ليصول بلسانه حيث شاء ، ويعبر عن ضميره بأجلى العبارات؛ فإن المعتزلة قد بلغوا من كل ذلك منزلة لم يلحق غبارها سواهم ، ولم يختص بها غيرهم ، فقد درسوا الفلسفة ، واقترضوا منها ما يوافق آراءهم ، ويلائم أهواءهم ، فعززوا به حججهم ، وقووا براهينهم ، واعتزوا بأنفسهم ، وتمسكوا بمتانة الخلق ، والاعتزاز بالنفس ؛ ومتانة الخلق من أهم الوسائل التى تميز شخصية الإنسان فى رأيه وأسلوبه ومذهبه

أما متانة الخلق فيهم ، وصونه من أن تعبث به أمور الدنيا ، فإليك شهادة أبى جعفر المنصور ، داهية العباسيين وعالمهم ، فى شيخ المعتزلة ومفتيها ، عمرو ابن عبيد تلميذ واصل بن عطاء ، فقد قال عنه ما دحا له : « نثرت الحب للناس فلقطوا غير عمرو (١) » .

وقد كان لهم من الهيبة والاعتبار ، ماجعل أبا جعفر على جبروته ودهائه ، وعزته بنسبه وسلطانه ، يسمع لعظاتهم فى خشوع واستبشار ، على مافيها من خشونة ومواجهة بالحقائق المرة ماكان أبو جعفر ليقبلها ، لولا مايعرف من شدة تقوى المعتزلة وورعهم ، وقوة تأثيرهم فى الناس . فقد دخل عمرو بن عبيد هذا على أبى جعفر ، « فأمر أن تفرش له لبود بقربه . وأجلسه إليه بعد ماسلم ثم قال : يا أبا عثمان ، عظنى بموعظة ، فوعظه بمواعظ ، فلما أراد النهوض قال : أمرنا لك بعشرة آلاف . قال : لاحاجة لى فيها . قال أبو جعفر : والله لتأخذنها . قال : لا والله لا آخذها . وكان المهدى حاضراً فقال : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ! فالتفت عمرو إلى أبى جعفر فقال : من هذا الفتى ؟ قال : هذا محمد ابنى وهو المهدى ، وهو ولى عهدى . قال : أما والله لقد ألبسته لباساً ماهو من لباس الأبرار ، (لأن العباسيين كانوا يتخذون السواد لباسهم) ولقد سميته باسم ما استحقه بعمل ، ولقد مهدت له أمنع مايكون عنه . ثم أقبل عمرو على المهدى فقال : نعم يابن أخى إذا حلف أبوك أحنثه عمك ، لأن أباك أقوى على

(١) الجزء الأول من الملل والنحل صفحة ٣٢

الكفارات من عمك . فقال له المنصور : هل لك من حاجة يا أبا عثمان ؟ قال : نعم . قال : ماهى ؟ قال : ألا تبعث إلى حتى آتيك . قال : إذاً لانلتقى ! قال : هى حاجتى ! ثم ودعه ونهض ، فلما ولى أتبعه المنصور بصره ، وأنشا يقول :

كلكم طالب صيد كلكم يمشى رُوَيْد
غيرَ عمرو بن عُبَيْد (١)

أرأيت كيف يخاطب شيخ المعتزلة أمير المؤمنين المنصور ، وكيف يهون من شأن ابنه المهدى ، وكيف يزهد فى ماله ويعف عنه ، وكيف يتمنى عمرو ابن عبيد ألا يلقى المنصور فلا يسخط عليه ، وكيف يشيعه بنظرة الإجلال ؟ إنه العلم يرفع أقدار الرجال ، والزهد يكسب نفوسهم عزة . نشأ شيوخ المعتزلة فى هذا الطراز ، فأثروا فى سياسة الدولة الأموية والدولة العباسية ، من حدود المائة الأولى إلى حدود المائة الثالثة الهجرية ، وكانوا إلى ذلك أئمة البيان ، وأعلام البلاغة ، وكفى أن تعرف أن منهم الجاحظ ، والنظام ، والزمخشرى ، وابن أبى الحديد ؛ أولئك العلماء الذين أثرت بفضلهم العربية ، وزخرت بحارها ، بما خلفوا من مؤلفات واسعة النطاق فى البلاغة والأدب والعلم .

ونستطيع أن نجمل القول فى المعتزلة بأنهم من ذوى الرأى الذين أفسحوا من سلطة العقل ، ورجعوا فى كل أمورهم إلى مشورته ، ودرسوا الفلسفة دراسة المتبصر ، وأمدوا بها علم الكلام ، وأحاطوا فهماً لأسرار اللغة ، واستظهاراً لمأثورها ، وتناولوا بالتفسير والتشريح والتحليل آيات القرآن والأحاديث ، وامتدت آراؤهم فى جو السياسة فخلقت به وأثرت فيه حيناً من الدهر ، وكان لايباريهم أحد فى قوة الحجة ، وقد وضعوا أصول علم الكلام والجدل والمناظرة والبلاغة ، وملئوا الدنيا دويا وعلما ، وخلقوا الفرصة للعلماء المخالفين لهم ، فألفوا الكتب فى الرد عليهم ومجادلتهم ونقض آرائهم ، فكان الأدب مديناً لهم مادامت العربية وما دام لها أدباء .

وهنا ملاحظة رأيت أن أدلى بها قبل أن أتجاوز الكلام عن المعتزلة عامة ،

(١) المسعودى الجزء الثانى صفحة ٢٤٢

إلى الكلام عن بشر بن المعتمر خاصة . وهى أن علماء المعتزلة تفرقوا فى الأقاليم كما تفرق علماء النحو ، فكان هناك معتزلة بغداد ، ومعتزلة البصرة ، كما كان علماء الكوفة وعلماء البصرة فى النحو ، وكان الجدل يستحر بين طائفتى المعتزلة ، كما كان يستحر بين البصريين والكوفيين من النحويين ، غاية الأمر أن الباحث المتبصر سينتهى إلى القول بأن معتزلة بغداد كانوا أقدر على الجدل ، وأقرب إلى الفلسفة ، وأعظم سلطاناً وأعلى مقاما عند الخلفاء ، وأميل إلى الصرامة والتزمت من معتزلة البصرة ، الذين كانوا أميل إلى الأدب والبلاغة ، وأكثر إنتاجاً وتاليفاً ، وأقرب إلى روح التسامح والمرح ، وأبقى ذكراً فى سجل التاريخ ، ولعلك تطمئن إلى هذا الرأى إذا عرفت أن بشر بن المعتمر وأحمد بن أبى دؤاد وثمامة بن أشرس من معتزلة بغداد ، وأن واصلا والنظام والجاحظ من معتزلة البصرة وسنتبع القول فى رئيس المعتزلة ببغداد :

بشر بن المعتمر

هو أبو سهل ، بشر بن المعتمر ، الهلالى ، كان مولى لبنى هلال بن عامر ، ذكره الجاحظ فقال عنه : إنه ، كان خاصاً بالفضل بن يحيى ، فقدم عليه رجل من مواليه ، وهو أحد بنى هلال بن عامر ، فمضى به إلى الفضل ليكرمه بذلك ، وحضرت المائدة ، فذكروا الضب ومن يأكله ، فأفرط الفضل فى ذمه ، وتابعه القوم بذلك ، ونظر الهلالى ، فلم ير على المائدة عربيا غيره ، وغاظه كلامهم ... ، [1] وهذا الخبر وإن دل على وفاء بشر لمواليه من العرب ، وبرّه بهم ؛ إنما يدل أيضا على تنقص الفضل ومن معه من أبناء الفرس من شأن العرب ، فى معرض استهجان عادة كانت شائعة بين بدو الجزيرة أمام أحد أبنائها وهى أكل الضب ، حتى تغيظ العربى ، وأدار بصره فيهم ، فلم يجد بينهم عربيا غيره .

وقد زعم ابن منظور أنه مولى لبنى النضر فقال : « بشر بن المعتمر النضرى ،

(١) الجزء السادس من الحيوان صفحة ٢٨

أبو سهل ، كان أبرص ، ويذكر أيضا أنه كان « أحد رؤساء المتكلمين ، وكان راوية ، ناسبا ، له الأشعار ، فى الاحتجاج للدين ، وفى غير ذلك ، ويقال : إن له قصيدة فى ثلثمائة ورقة ، احتجّ فيها ، وقصيدة فى الغول ، وذكر الجاحظ أنه لم ير أحداً أقوى على المزدوج ، والمخمس منه » (١) ، وأنه كان فى ذلك أكثر وأقدر من أبان اللاحقى » (٢) ويذكر المرتضى « أن جميع معتزلة بغداد كانوا من مستجيبيه » (٣) أى كانوا من تلاميذه . ويعزز ما جاء فى اللسان من أن له قصيدة فى ثلثمائة ورقة ما جاء فى مرجع آخر من أن « له قصيدة أربعين ألف بيت ، ردّ فيها على جميع المخالفين » (٤) . وقال عنه أبو القاسم البلخى : « إنه من أهل بغداد ، وقيل من أهل الكوفة ، والظاهر أنه ولد وترعرع فى الكوفة ، ثم ارتحل إلى بغداد ، وبها نشر مذهبه فى الاعتزال ، وتتلمذ له من تتلمذ ، مثل أحمد بن أبى دواد وثمامة بن أشرس وأبى موسى المزداد ، وكان شيخه من المعتزلة ، معمر بن عباد السلمى ، وعده ابن المرتضى من طبقة النظام وأبى الهذيل والجاحظ .

ولم يكن أثيراً لدى الرشيد ، أو حظيا عنده ، مع أنه رئيس معتزلة بغداد قاطبة ، وله مكانة لا تجحد فى العلم والحجة والأدب ، وقد يعزى هذا إلى أنه كان مختصا بالفضل بن يحيى البرمكى ، أو لاتهامه بأنه من الرافضة ، أو لتشيعه لسيدنا على ، أو لبرصه ؛ والبرص من العاهات المنفرة ممن يصاب به . وسواء كان هذا أو ذاك ، فإن واحدة مما تقدم لتكفى للحيلولة بينه وبين ما كان ينتظر لمثله من حظوة وتكريم عند الرشيد ، وكانت وفاته سنة ٢١٠ هـ

مذهبه

لم تبسط المراجع التى استلهمنا منها الرأى عن بشر القولَ فيه ، ولم تخلع عليه من حلل اللفظ مثل ما خلعت على تلاميذه ، إلا أن الواقع أنها كلها نعته بالزعامة ، ورجعت القول فى أصول المسائل إليه ، فقد نسب إليه القول بأن الله

(١) الجزء الرابع من اللسان صفحة ٢٦٨ و ٢٦٩

(٢،٤) أمالى المرتضى الجزء الأول صفحة ١٣١

(٣) راجع الانتصار صفحة ١٩٤

قادر على لطف لو فعله بالكافر لآمن طوعاً ، وأنه لو تفضل بخلق العقلاء فى الجنة لكان أولى .

وهو صاحب القول بنظرية التولد ، ومؤداها أن الأفعال التى تنتج متولدة من فعل الإنسان ، هى أيضاً من فعله ، فإذا مزجت سائلا بآخر ، فنتج للمزيج لون جديد يخالف لون كل من السائلين قبل المزج ، يقال إنك الذى فعلت المزج ، وفعلت اللون الحادث من المزج ؛ وإذا أصاب العين رمد لم تبصر معه ، فأزال الطبيب الرمد ، يقال إن الطبيب هو الذى أوجد السلامة فى العين ، وأوجد ما يترتب عليها من الإبصار ، وجملة القول ، أنه يصح من الإنسان أن يفعل الألوان والطعوم والروائح والرؤية والسمع وسائر الإدراكات على سبيل التولد إذا فعل أسبابها ، وكذلك قوله فى الحرارة والرطوبة واليبوسة ، (١)

ويرى أن الله يغفر الذنوب الكبائر لمن يجترحها بشرط أن يتوب عنها ولا يعود إليها ، ، فإنه قبل توبته بشرط ألا يعود ، (٢) فإن رجع فى توبته ، أخذه الله بما ارتكب أولا وآخراً ، لأن التوبة إنما تستوجب الغفران إذا كانت رادعة عن العودة إلى الإثم والمعصية ، وله غير ذلك أقوال أخرى فى علم الكلام انفرد بها ، ولم نر ضرورة ملزمة للتعرض إلى ذكرها ، وإنما أوردنا من أقواله ما يعزز القول بأنه كان من أئمة المعتزلة وذوى الرأى فيهم .

ومن الأقوال التى نسبت إليه ماورد ذكرها فى كتب الفلاسفة فتأثر بها وأدمجها فى مسائل علم الكلام ، كمسألة التولد ، فإنها من صميم مسائل الفلسفة ، وقد تأثر بها بشر حينما تقرر عند المعتزلة القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه ، فزاد عليها بأنه يخلق أيضاً ما يتولد من هذه الأفعال . وقد ذكر عبد القاهر البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق »(٣) المسائل التى نسبت إلى بشر ، وأسماها فضائح ، ثم عرض إليها ابن الخياط المعتزلى فى كتاب « الانتصار » (٤) بالتأييد

(١) الفرق بين الفرق صفحة ١٤٣

(٢) الملل والنحل على هامش الفصل صفحة ٨٣

(٣) صفحة ١٤١ — ١٤٥ ، حيوان ٦ (٤) حيوان ٦ صفحة ٦٢ — ٦٥

وأبان وجه الرأى فى كلام بشر ، ونفى اللوم عنه ، فارجع إليهما إن أردت المزيد .

وحكى ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ، أن بشرا كان مع اعتزاله متشيعا لسيدنا على ، وكان يقول ـ وتابعه فى ذلك سائر معتزلة بغداد ـ بتفضيل علىّ على سيدنا أبى بكر ، إلا أنه يحكم بصحة خلافته ، لأن عليا بايعه غير مكره .

وقد ألّف بشر التصانيف فى الردّ على معتزلة البصرة ، كأبى الهذيل ، والنظام ، وأبى بكر الأصم ، كما ألف الكتب أيضاً فى الرد على الرافضة ، والمرجئة ، والخوارج .

وقد كان قاسيا فى تصويره لأبى الهذيل ، فقد صبه فى قالب الرجل الذى لا يدين بمبدإ ، ولا يدافع عن معتقد ، ورماه بحب الظهور ، والظفر برضا الجمهور ، قال الجاحظ : « وكان بشر يقع فى أبى الهذيل ، وينسبه إلى النفاق ، فقال وهو يصف أبا الهذيل : لأن يكون لا يعلم وهو عند الناس من العلية ، أحب إليه من أن يكون من العلية وهو عند الناس من السفلة ، ولأن يكون نبيل المنظر سخيف المخبر ، أحب إليه من أن يكون سخيف المنظر نبيل المخبر ، وهو بالنفاق أشد عجبا منه بالإخلاص ، ولباطل مقبول أحب إليه من حق مدفوع »[1]

أدبه :

لم يكن بشر من أئمة المعتزلة فحسب ، ولكنه كان أرواهم للشعر[2] ـ كما حدث الجاحظ ـ « وكان شاعراً . وأكثر شعره على المسمّط[3] والمزدوج ، كما

(١) أمالى المرتضى ١ ص ١٣٢

(٢) حيوان ٦ ص ١٣٥

(٣) الفهرس لابن النديم صفحة ٢٣٠ ـ والمسمط من الشعر : ما قفى أرباع بيوته ، وسمط فى قافية مخالفة ، ويقال : قصيدة مسمط وسميطة كقول امرىء القيس :

مرابع من هند خلت ومصايف يصيح بمغناها صدى وعوازف

وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف

بأسحم من نوء السماكين هاطل

اه من جزء ٩ لسان صفحة ١٩٣

كان من أهل الجدل ، وأصحاب المقالات فى البلاغة والأدب ، عالما بالأنساب ، حافظا للسير والأخبار ، دارسا لطبائع الحيوان ، ملما بما كان يشحن أذهان العرب من الأساطير والخرافات .

وسنعالج القول فى شعره ونثره ومناظراته . لعل هذه الأمور الثلاثة إذا أرضينا فيها البحث أن تكشف عماله من أثر فى الأدب ، وإن كان ما لدينا من نصوص شعره ونثره ومأثور قوله ، أقل مما كنا نطمع فى الوصول إليه لنجعله أداة البحث وندير الرأى حوله :

شعره :

لم يتخذ بشر الشعر ليصوّر به عاطفة تجيش فى صدره ، أو ليزين به فى مراتع العبث والمجون التى كانت شائعة فى عصره ، أو ليتزلف به فى مدح خليفة حتى يستندى كفه ، وإنما اصطنعه ليقارع به خصومه فى الرأى ، ويحتج به عليهم ، ويدافع عمن يميل إليهم ؛ ولعله استجاب إلى الشعر دون النثر ، ليستعين بسهولة حفظه ، وحسن جرسه ، وموسيقية نظمه ، على ظهور حجته على خصمه ، وشيوع قوله ، وسهولة روايته ، وبقائه فى الأذهان .

ولهذا يسهل علينا إيجاد السبب لرغبته فى الشعر المزدوج والمخمس خاصة ، وإيثارهما على القافية المضطردة ، فإن الشعر المزدوج أو المخمس مما ييسر على الشاعر النظم ، ويطلقه من قيود القافية الواحدة ، ويرخى له عنان القول ، حتى قيل إنه نظم قصيدة واحدة فى أربعين ألف بيت ، أوفى ثلثمائة ورقة ، على إحدى الروايات . وإن علماء المعتزلة كانوا يستمدون من العقل حججهم وبراهينهم ، وكانوا يسلكون فى التدليل على آرائهم مسالك ضيقة ، فلو سار بشر فى برهاناته على التزام قافية واحدة ، لشرّد منه هذا التقييد كثيرا من المعانى ، فيسقط البرهان ، وتخفى معالم الدليل ، أما التحلل من قيود القافية الواحدة ، فإنه يمكنه من إيضاح حجته ، والتغلب على خصمه ، وكان بشر فى هذا الصدد أهدى إلى الصواب من أبى العلاء الذى جاء بعده ، والتزم فى فلسفته واجتماعياته ونقده ما لا يلزم من من القافية ، فجاء بالغريب ، وفتك بكثير من المعنى فى سبيل التكلف والتعسف .

ولا تطمع أن تجد فى شعر بشر غذاءً لعاطفتك ، أو ترويحا لنفسك ، فإنه كما قدمنا لم يسلك مسالك أهل العاطفة والخيال ، ولم يتجه بشعره كما تشتهى الغرائز ويوحى جمال الكون وأسرار الطبيعة ، ولكن معظم شعره من النوع التعليمى ، الذي يخاطب العقل ، ويهدى إلى الحجة ، ويبرأ من خصومه من أهل الفرق :

فهذه مقطوعة من شعره ، يطعن فيها على هشام بن الحكم شيخ الرافضه ، ويبرأ منهم ومن جهم بن صفوان ، ويفضل عليهم شيخه عمرو بن عبيد ، ويقال إنه قالها لما حبسه الرشيد لاتهامه بقول الرافضه :

ما بالُ مَنْ ينتحلُ الإسلاما متخذاً إمامه هشاما
فنحن لا ننفك نلقى عارا نفرّ من ذكرهُ فرارا
ننفيهمُ عنا ولسنا منهمُ ولاهمُ منّا ولا نرضاهمُ
إمامُهمْ جَهْمٌ وما لجهمِ وصحب عمرو ذى التقى والعلم
لسنا من الرافضةِ (١) الغُلاة ولا من المرجئة الجفاةِ
لا مفرطين بل نرى الصِّدّيقا مُقدّماً ، والمرتضى الفاروقا

وهذه أبيات أخرى من شعره المزدوج ، يمدح بها سيدنا عليا . ويذكر فضله على الخوارج ، ويمثلهم ببعض الحشرات الخبيثة ، وفيها يورد بعض الحكم والأمثال ، وهى : (٢)

ما كان من أسلافهم أبو الحَسَنْ ولا ابنُ عباسٍ ولا أهلُ السُّنَنْ
غُرٌّ مصابيحُ الدجَى مناجِبُ أولئك الأعلامُ لا الأعاربُ
كمثل حُرْقوص ومن حرقوص بَقْعة قاع حولها قَصِيصُ (٣)

(١) هم طائفة من الشيعة رفضت إمامة زيد بن على لأنه لم يبرأ من أبى بكر وعمر
(٢) نقلا عن الحيوان الجزء السادس صفحة ١٥٥
(٣) الحرقوص : دويبة صغيرة مثل القراد ، وقيل هو من البراغيث . والبقعة (بفتح الباء) : مكان يستنقع فيه الماء . والقصيص : جمع مفرده قصيصة : وهى شجرة تنبت فى أصلها الكمأة ويتخذ منها الغسل

ليس من الحنظل يُشتارُ العسلْ ولا من البحور يُصطاد الورَلْ (١)
هيهات ! ما سافلة كعاليه ما معدن الحكمةِ أهلُ الباديه

ولبشر قصيدتان رائيتان ، إحداهما مضمومة القافية والثانية مكسورتها ، وتقع الأولى فى ستين بيتا ، وتقع الثانية فى سبعين بيتا ، ذكرهما الجاحظ فى الجزء السادس من كتاب الحيوان ، وقال فى مقدمة ذلك : « أول ما نبدأ ـ قبل ذكر الحشرات ، وأصناف الحيوان والوحش ـ بشِعرَى « بشر بن المعتمر » فإن له فى هذا الباب ، قصيدتين ، قد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفوائد . ونبه بهذا على كثير من الحكمةِ العجيبة ، والمواعظ البليغة »(٢) ثم شرحهما شرحا وافيا ، واستطرد فى الشرح على عادته إلى سرد طباع الحيوان ، والاستشهاد بالشعر والنثر . وذكر بعض القصص الماجنة أحيانا ، والخرافية أحيانا أخرى .

والحق أن بشراً قد دل بهاتين القصيدتين على غزارة علم وسعة اطلاع وكثرة حفظ لأنواع الحيوان والحشرات وتفهم طباعها ومعرفة خصائصها . ولم يفته فى آخر القصيدة الأولى أن يذكرَ الرافضة والإباضية والنابتة وينحي عليهم بالطعن والثلب ، كقوله :

إنى وإن كنت ضعيف القوى فالله يقضى وله الأمــر
لست إباضياً غبيًا ولا كرافضىٍّ غرّه الجفرُ
كلاهما وسع فى جهل ما فعاله عندهما كفر
لسنا من الحشو الجفاة الألى عابوا الذى عابوا ولم يدروا
قلوبهمْ شتى فما منهم ثلاثة يجمعهم أمر
إلا الأذى أو بهت أهل التقى وإنهم أعينهم خُزْرُ

فهو فى هذه القصيدة والتى تليها يذكر الأعاجيب من طباع الحيوان والحشرات ، وهذه أبيات من قصيدته الأولى أيضاً نذكرها على سبيل المثال :

(١) الورل : دابة صحراوية خفيفة الحركة ليس شىء من الحيوان أقوى على أكل الحيات وقتلها منه . اه حيوان الجاحظ

(٢) صفحة ٩١

وحكمة يبصرها عاقل ليس له من دونها ستر
جرادة تخرق متن الصفا وأبغث يصطاده صقر
سلاحه رُمْح فما عذره وقد عراه دونه الذعر
والدب والقرد إذا عُلِّما والفيل والكلبة والبغر[1]
يحجم عن فرط أعاجيبها وعن مدى غاياتها السحر
وظبية تخضم[2] فى حنظل وعقرب يعجبها التمر
وعضرفوط[3] ما له قبلة وهدهد يكفره بكر

فهو يبدى عجبه من حكمة الخالق لهذه الدواب والطيور ، فقد جعل الجرادة على صغر حجمها قادرة على خرق الحجر ، وجعل الطير المسمى الأبغث - وبدنه أعظم من بدن الصقر ، وهو أشد منه ومنقاره كسنان الرمح - يستخزى للصقر ويهرب منه . فالمسألة فى ذلك ليست فى عظم الجسم وقوته ، ولكن الخالق ركز فى الصقر هيبة جعلت الأبغث الضخم القوى يخشاه ويفر منه ، ثم يذكر الحيوان القابل للتعلم ، وهو القرد والدب والفيل والكلب وصغار الغنم ، وأنها تأتى إذا علّمت بالعجب العجاب ، ثم يمضى فيذكر أن من طباع الظبية حب الحنظل ، ومن طباع العقرب حب التمر ، فاعجب كيف أن الظبية تمضغ الحنظل وتستلذه وتستحليه على مرارته . ويعود فيذكر أن العضرفوط والهدهد من طبعهما أن يهيما على وجهيهما ، وفى أثناء هذا يشير إلى مسألة فى علم الكلام ، وهى أن بكراً هذا كان يقول فى هدهد سليمان ، إنه ترك موضعه وسار إلى بلاد سبأ ، ثم أطرف سليمان بخبر بلقيس ، ولكن إحسانه فى الثانية ، لا يعفيه من الذنب فى فى الأولى ، ولا يكون ذنبه الذى ارتكبه بترك موضعه ، إحساناً بعثوره على

---

(١) البغر : صغار الغنم

(٢) تخضم : تقطع وتمضغ بأضراسها ، والخضم يكون فى قطع اللين ، أما القضم فهو قطع اليابس .

(٣) العضرفوط : دويبة يظن أنها مطية الجن

بلقيس والوقوف على حال قومها ، فحكم على الهدهد بالنفاق والكفر ، فعرّض به بشر وانتقده ، لأنه رأى أن البهائم والطيور ترتكب الذنوب وتأثم .

وفى القصيدة الثانية يميل إلى التنبيه إلى العظة والحكمة التى أودعها الله فى الوحوش والحشرات وما فيها من آية دالة على قدرة الله ، ويمجد العقل خير تمجيد ، ويذكر أنه الهادى فى العسر واليسر ، والحاكم الذى يستنبط الغائب من الشاهد ، فيقول مثلا :

والحشراتُ الغُبْرُ منبثة بين الورى والبلد القفر
وكلها شر ، وفى شرها خير كثير عند من يدرى
لو فكّر العاقلُ فى نفسه مدة هذا الخلق فى العمر
لم يَرَ إلا عجباً شاملا أو حجة تنقشُ فى الصخر
فكم ترى فى الخلق من آيةٍ خفيّة الجُسمان فى قعر
أبرزها الفكرُ على فكرةٍ يحار فيها وضحُ الفجر
لله دَرُّ العقل من رائدٍ وصاحب فى العسر واليسر
وحاكم يقضى على غائب قضيةَ الشاهد للأمر
وإن شيئاً بعضُ أفعاله أن يفصل الخير من الشرّ
لذو قوى قد خصه ربه بخالص التقديس والطهر

على أن بشراً على غزارة علمه فى معرفة طبائع الحشرات والحيوان وصفات أجسامها ، قد تأثر فى بعض ما نظمه عن الحيوان بما كان يشيع فى عصره من أقوال لا تستند إلى علم أو تجربة ، فهو يذكر فى قصيدته الثانية التى نحن بصدد إبداء الملاحظات عليها ، أن الجمل ليست له مرارة ، وأن خصيته وشقشقته لا توجدان عند حدوث الموت والنحر ، وأن الفرس لا طحال له ، وأن جوف الثور فيه عظم ، فيقول :

والمُقرَمُ (١) المعلم ما إنْ له مرارة تسمعُ فى الذكر

(١) المقرم كمكرم : البعير لا يحمل عليه

وخصية تنصل من جوفه عند حدوث الموت والنحر
ولا يرى بعدهما جازرٌ شقشقة مائلة الهدر
وليس للطرف طحالٌ وقد أشاعـــه العالِمُ بالأمر
وفى فؤاد الثور عظم وقد يعرفه الجازرُ ذو الخبر

وقد علق الجاحظ على هذه الأبيات بكلام نورد إليك بعضه لما فيه من فكاهة مليحة ، قال : « لقد تنازع بالبصرة ناس فأطبقوا جميعاً على أن الجمل إذا نحر لا توجد له خصية ولا شقشقة ، فلم أجد ذلك عمل فى قلبى مع إجماعهم على ذلك ، فبعثت إلى شيخ من جزارى باب المغيرة فسألته عن ذلك فقال : بلى ، لعمرى إنهما ليوجدان إن أرادهما مريد ، وإنما سمعت العامة كلمة وربما مزحنا بها فنقول : خصية الجمل لا توجد عند منحره ، أجل والله ما توجد عند منحره وإنما توجد فى موضعها (١) » اه بتصرف

أما بعد فإننا نكتفى من الحديث عن شعر بشر بما أوردناه ، ومن أراد أن يشبع رغبته من دراسة هاتين القصيدتين فليرجع إلى الجزء السادس من كتاب الحيوان للجاحظ .

نثره :

ليس لدينا الآن من نثر بشر ؛ أكثر من صحيفته الذائعة ، التى لم تر أمهات الكتب القديمة فى الأدب جاءت خلواً منها ، كما أن لدينا عبارات قصيرة عثرنا عليها منثورة فى أثناء الكلام عن البلاغة أو القلم ، ولكنها لا تمد الكاتب بما يرغب فيه من دقة البحث والتحليل . فلنورد صحيفته ، ثم نعود إلى التحدث عنها بما يعن لنا فى إيجاز ، قال الجاحظ فى البيان والتبيين : (٢)

مر بشر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكونى الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة . فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من

---

(١) حيوان ٦ ص ١٤٩
(٢) الجزء الأول صفحة ١٠٤

النظارة . فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ، واطووا عنه كشحاً . ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فإن نفسك تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسباً ، وأحسن فى الاستماع ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ . وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، والتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا ، وخفيفا على اللسان سهلا . وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه ، وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد . والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك . ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويُهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما . وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما . وكن فى ثلاث منازل . فإن أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفا ، وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة . مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامى والخاصى . فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، على أن تُفهم العامة معانى الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام . . . فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى مركزها وفى نصابها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها ،

نافرة من موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول فى غير أوطانها : فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد . وإن أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقا مطبوعا ، ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك أو مالك ، عابك من أنت أقل عيبا منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك . فإن ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة ؛ وتعصى عليك بعد إجالة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك ، أو سواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة ، إن كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عرق . فإن تمنع عليك بعد ذلك غير حادث شغل غرض ، ومن غير طول إهمال . فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك ، وأحفظها عليك ، فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب . والشيء لا يحن إلا إلى ما يشاكله ، وإن كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات . لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة . كما تجود به مع المحبة والشهوة فهكذا هذا . ، قال بشر : فلما قرئت على ابراهيم قال لى : أما أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان .

فقد رسم الوسائل التى يجرى عليها مريد الخطابة ، وأرجعها فى جملتها إلى ما يأتى :

(١) تخير الوقت المناسب ، حين تتمتع النفس بالنشاط وفراغ البال .

(٢) التحذير من التوعر ، الذى يؤدى إلى التعقيد ، وهو يؤدى إلى ضياع المعانى ، ورداءة الألفاظ .

(٣) التماس اللفظ الشريف للمعنى الشريف

(٤) موافقه الكلام للحال وما يجب لكل مقام من المقال .

(٥) إن البليغ التام هو الذى يبلغ من بيان اللسان ما يفهم به العامة معانى الخاصة فى الألفاظ الواسطة

(٦) خير لمن يكره اللفظ على غير موضعه ، ويتعصى عليه القول بعد إجالة الفكر ، أن يتركه حتى يعاوده نشاطه ، فإن رجع إليه وامتنع عليه القول بعد ذلك ، كان الأولى به أن يترك الكتابة ويحترف صناعة أخرى يكون له إليها ميل

وهذه الإرشادات القيمة التى ابتكرها بشر ابتكاراً ، تصلح أن تكون دستوراً لمن يريد الكتابة أو الخطابة على السواء ، بل هى وسائل توصل إلى حذق الكتابة أكثر من الخطابة ، إلا أنها تدل على أن لبشر قدما راسخة فى النقد ، وأنه ذو بصر فى فن الأدب كتابة وخطابة شأنه فى الشعر ، وللخطابة مقوّمات ودواع أخرى غير ما ذكر بشر ، وهذا الكلام يبين أن بشراً درس الخطابة دراسة علمية ، ولكنا لم نسمع أنه كان من خطباء عصره . ويغلب على الظن أن هذه الصحيفة أثر من الدراسة الشخصية لبشر ، أى أنه لم ينقل منها شيئا عن أصول الخطابة عند اليونان ، لأن بشراً جرى فى مساق الكلام عن الخطابة ، على غير الطريق الذى سلكه أرسطو فى كتاب الخطابة ، كما أن التقديم الذى أورده الجاحظ لهذه الصحيفة ، من اعتراف إبراهيم بن جبلة بشدة احتياجه لدراسة الصحيفة أكثر من تلاميذه ، يدل على المكانة الأدبية التى كانت لبشر فى بغداد . وأنه كما كان فيها زعيم المعتزلة ، قد كان له زعامة فى الأدب

ولم أقرأ لبشر من النتاج الأدبى الفنى شيئاً مطولا غير صحيفته تلك ، ويخيل إلى أنه كان يميل إلى وضع القوانين للفنون المختلفة شأن الأئمة والزعماء ، فكتابته كشعره تشريع أو تعليم .

ولقد كان بشر مطيلا فى صحيفته تلك ، ومسهباً فى ذكر وجوه الرأى فيها ، ولكنه فى موضع آخر يقصر ويوجز كل الإيجاز ، فى موضوع مشابه لموضوع الصحيفة . أى متعلق بالكتابة والخط والقلم ، فقد قال « القلب معدن ، والحلم جوهر ، واللسان مستنبط ، والقلم صانع ، والخط صنعة [1] » ، فأورد فى سطر واحد ، الكلام عن أمور خمسة ، فضرب المثل فى التطويل والإيجاز ، فدل بذلك على طواعية قلم ، ورسوخ قدم .

---

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٨

جدله ومناظراته :

اتخذ المعتزلة - كما أسلفنا - الجدل والمناظرة سلاحا يشهرونه فى وجوه خصومهم ، ويدحضون به حججهم ، وبرعوا فى استعماله براعة دلت على عقل مفكر ، ولسان فصيح ، وعلم عزيز . ويخيل إلى أنه لو كان نظام المحاماة فى القضايا جاريا فى عهد العباسيين ، لكسب المعتزلة كل القضايا التى يتولون الدفاع فيها ، وإليك مناظرة جرت بين بشر وأبى العتاهية ، قصد فيها بشر إلى تزييف زهد أبى العتاهية وإظهار سوء قصده ، فأخذ عليه منافذ القول ، وأخزاه وألجمه ، ووصل إلى ما يريد أن يفهمه أبو العتاهية من رأى بشر فيه ، فيتقبله مذعنا دون أن يجد له حيلة فى الرد عليه ، أو نقض ما يقول ، وإليك المناظرة :

« ذكر أحمد بن إبراهيم بن اسماعيل أن بشر بن المعتمر قال يوما لأبى العتاهية: بلغنى أنك لما نسكت جلست تحجم اليتامى والفقراء للسبيل ، أكذلك كان ؟ قال : نعم ؛ قال له : فما أردت بذلك ؟ قال : أردت أن أضع من نفسى حسبما رفعتنى الدنيا ، وأضع منها ليسقط عنها الكبر ، وأكتسب بما فعلته الثواب ، وكنت أحجم اليتامى والفقراء خاصة ؛ فقال له بشر : دعنى من تذليلك نفسك بالحجامة ، فإنه ليس بحجة لك أن تؤديها وتصلحها بما لعلك تفسد به أمر غيرك : أحب أن تخبرنى: هل كنت تعرف الوقت الذى كان يحتاج فيه من تحجمه إلى إخراج الدم ؟ قال : لا ؛ قال : هل كنت تعرف مقدار ما يحتاج كل واحد منهم إلى أن يخرجه على قدر طبعه مما إذا زدت فيه أو نقصت منه ضر المحجوم ؟ قال : لا ؛ قال : فما أراك إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين ! » (١)

وله مناظرات أخرى فى مسائل علم الكلام ، تجد بعضها فى الجزء السادس من الحيوان ، وتجد البعض الآخر فى أمالى المرتضى فارجع إليها إن شئت

حسن عطوان

(١) ج ٤ الأغانى ص ٧